

الــدَّارُ الآخِــرَةُ

(7)

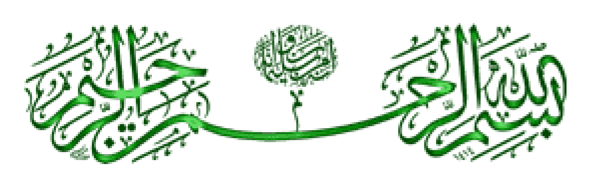
سُــوءُ الخَــاتمَةَ

(عَلَامَاتٌ وَأَسْبَاب)

للشيخ / ندا أبو أحمد







الدار الآخرة

سوء الخاتمة

تمهيد:

إن الحمد لله - تعالى - نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله - تعالى - من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 70، 71].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديث كتاب الله - تعالى - وخير الهَدْي هَدْي محمد - صلى الله عليه وسلم - وشر الأمور محدثاتها، وكل مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أولاً: معنى سوء الخاتمة:

سوء الخاتمة معناها: أن يموتَ العبد على حالةٍ سيئة لا تُرضِي الله - عز وجل.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله - في "الثبات عند الممات" (ص 78):

"قد خُذِل خلقٌ كثير عند الموت، فمنهم مَن أتاه الخِذلانُ في أول مرضِه، فلم يستدرك قبيحًا مضى، وربما أضاف إليه جورًا في وصيتِه، ومنهم مَن فاجأه الخِذلانُ في ساعةِ اشتداد الأمر، فمنهم مَن كفر، ومنهم مَن اعترض وتسخَّط، نعوذ بالله من الخِذلان، وهذا معنى سوء الخاتمة؛ وهو أن يغلب على القلب عند الموت الشك أو الجحود، فتُقبَض النفس على تلك الحالة، ودون ذلك أن يتسخَّط الأقدار"؛ اهـ.

ويقول الشيخ صديق حسن خان - رحمه الله -: "سوء الخاتمة على رتبتين:

إحداهما: وهي أعظم من الثانية، وهي أن يغلب على القلب عند سكراتِ الموت شكٌّ أو جحود، فتقبض الروح على تلك الحال، فتكون حجابًا بينه وبين الله - تعالى - أبدًا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية - وهي دونها -: وهي أن يغلبَ على قلبه عند الموت حبٌّ أمر من أمور الدنيا، أو شهوةٌ من شهواتها، فيتمثَّل ذلك في قلبه، ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متَّسَع لغيره، فإذا قُبِضت الروح في حالة غَلَبة حب الدنيا، فالأمر خطير؛ لأن المرء يموتُ على ما عاش، ويُبعَث على ما مات عليه، وعند ذلك تعظم الحسرة"؛ اهـ، بتصرف واختصار؛ (يقظة أولي الاعتبار، صديق حسن خان: ص216).

والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول كما في "صحيح البخاري": ((إنما الأعمال بالخواتيم))، ويكمن خطر هذه الكلمة في أن العبدَ عند الموت يكون في غاية الضعف؛ فهو يعاني من ألم النزع، والخوف من خطر ما هو مُقبِل عليه عند الموت، وكذا هجوم إبليس عليه بخَيْله ورَجِله، ويقول إبليس لأعوانه: دونكم هذا الرجل، إن أفلت منكم اليوم لا تدركونه.

فهذه فتنة عظيمة لا يَثبُت فيها إلا المؤمن الصادق، الذي استقام على دين الله - تعالى - قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: 27].

ففي هذه الفتنة يُثبِّت الله قلوبَ المؤمنين الصادقين، وتنتكسُ فيها قلوبُ المنافقين والمفرِّطين، وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتعوَّذ بعد التشهُّد الأخير في الصلاة من أربعٍ، فيقول: ((اللهم إني أعوذُ بك من عذاب النار، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وشر فتنة المسيح الدجال))؛ (رواه البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه).

وفتنة المحيا: هي التي يتعرَّض لها العبد في هذه الحياة الدنيا، وهي فتنة متنوعة.

وفتنة الممات: هي الفتنة التي تنزل بالمرء عند السكرات والكُرُبات، والإقبال على ربِّ الأرض والسموات، نسأل الله الثبات عند الممات.

- **خوف السلف من سوء الخاتمة:**

في حديث نبوي خطير يقول فيه البشير النذير - صلى الله عليه وسلم -: ((فوالذي لا إلهَ غيره، إن أحدَكم ليعملُ بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعملِ أهل النار فيدخلُها، وإن أحدَكم ليعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبقُ عليه الكتاب، فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخلها))؛ (رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه).

وفي "صحيح البخاري" من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: "إن النبي - صلى الله عليه وسلم - التقى هو والمشركون، وفي أصحابه رجلٌ لا يدع شاذَّة ولا فاذَّة إلا اتَّبعها يضربُها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((هو من أهل النار))،

فقال رجل من القوم: أنا أصاحبه، فاتَّبعه، فجُرِح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه على الأرض وذبابَه بين ثَدْيَيه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسَه، فخرج الرجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: أشهد أنك رسول الله، وقصَّ عليه القصة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن الرجل ليعملُ بعمل أهل الجنة - فيما يبدو للناس - وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعملُ بعملِ أهل النار - فيما يبدو للناس - وهو من أهل الجنة، إنما الأعمال بالخواتيم)).

وفي رواية عند الطبراني في "الكبير" أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((لا تعجبوا بعملِ عاملٍ حتى تنظروا بم يُختَم له)).

ومن هنا كان خوف العارفين، وقد كان أكثر دعاء النبي الأمين - صلى الله عليه وسلم -: ((يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك))، فقال له أنس بن مالك - رضي الله عنه -: يا نبي الله، آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: ((نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يُقلِّبُها كيف يشاء)).

كلماتٌ قطَّعت قلوبَ الصالحين، وأطارت النوم من أعينِهم، وحُقَّ لهم ذلك، فكم سمعنا عمَّن آمَن ثم كفر، وكم رأينا مَن استقام ثم انحرف، وكم مَن شارف مركبُه ساحلَ النجاة، فلما هَمَّ أن يرتقي لَعِب به الموج فغَرِق.

أحبتي في الله، الخلق كلهم تحت هذا الخطر، قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، يُقلِّبها كيف شاء.

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - في كتابه "التذكرة":

"لا تُعجَب بإيمانك، وعملك، وصلاتك، وصومك، وجميع قُرَبك، فإن ذلك وإن كان من كسبِك، فإنه من خَلْق ربك وفَضْله عليك، فمهما افتخرتَ بذلك، كنتَ كالمفتخِر بمتاعِ غيره، وربما سُلِب عنك، فعاد قلبُك من الخير أخلى من جوفِ البعير، فكم من روضةٍ أمست وزهرُها يانع عَمِيم، فأصبحت وزهرها يابس هَشِيم؛ إذ هبَّت عليها الريحُ العَقِيم، كذلك العبد يُمسِي وقلبُه بطاعة الله مُشرِق سليم، فيُصبِح وهو بمعصيتِه مُظلِم سقيم، ذلك فعلُ العزيز الحكيم، الخلَّاق العليم"؛ اهـ.

نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكور، ومن الضلالة بعد الهدى، ومن المعصية بعد الطاعة.

قال ابن رجب - رحمه الله - كما في "جامع العلوم والحكم" (صـ50):

"**وفي الجملة**: فالخواتيم ميراثُ السوابق، فكل ذلك سبق في الكتابِ السابق، ومن هنا كان يشتدُّ خوف السلف من سوء الخاتمة، ومنهم مَن كان يقلقُ من ذكر السوابق، وقد قيل: (إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يُختَم لنا؟ وقلوب المقرَّبين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا؟)، وكان سفيان الثوري - رحمه الله - يشتدُّ قلقُه من السوابق والخواتم، فكان يبكي ويقول: (أخاف أن أكون في أمِّ

الكتاب شقيًّا)، ويبكي ويقول: (أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت)، وكان مالك بن دينار - رحمه الله - يقوم طول ليلِه قابضًا على لحيته، ويقول: (يا رب، قد علمتَ ساكنَ الجنة من ساكنِ النار، ففي أي الدارين مترلُ مالك؟)"؛ اهـ باختصار.

وقال سهل التستري - رحمه الله -: "خوف الصدِّيقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة، وهم الذين وصفَهم الله - تعالى - إذ قال: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون: 60]"؛ (إحياء علوم الدين: 272/3).

وقفة:

يقول الإمام النووي - رحمه الله - عند قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((والذي نفسي بيده، إن أحدَكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))، قال: "وإن هذا يقع في نادرِ الناس، لا أنه غالبٌ فيهم، ثم إنه من لطف الله - تعالى - وسَعَة رحمته انقلابُ الناس من الشر إلى الخير في كثرة، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر، ففي غاية الندور ونهاية القلة، وهو نحو قوله - تعالى -: ((إن رحمتي غلبت غضبي)).

ثانيًا: علامات سوء الخاتمة:

فهناك علامات تكون قبل الموت، وعلامات عند التغسيل، وعلامات عند الدفن، وعلامات بعد الدفن.

علامات سوء الخاتمة قبل الموت:

فبعضهم يقعُ عند اشتداد المرض في التسخُّط والاعتراض على قضاء الله، أو الجحود والكفر بـ: (لا إله إلا الله)، أو يصرخ بأنه لا يستطيع أن ينطق بكلمة التوحيد، وأنه يحال بينه وبينها والعياذ بالله، أو يتكلَّم بكلام يُغضِب الله - عز وجل.

وقد ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - في "جامع العلوم والحكم" (صـ50)، عن عبدالعزيز بن أبي روَّاد أنه قال: "حضرتُ رجلاً عند الموت يلقَّن الشهادة - لا إله إلا الله - فقال في آخر ما قال: "هو كافر بما تقول"، ومات على ذلك، قال: فسألتُ عنه فإذا هو مُدمِن خمر، وكان عبدالعزيز يقول: "اتقوا الذنوبَ؛ فإنها هي التي أوقعته".

وذكر الشيخ عبدالرحيم الطحان في محاضرة له بعنوان "الخوف من سوء الخاتمة"، فقال - حفظه الله -: "منذ سنوات جرَت حادثة في القصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلها أن رجلاً في حال احتضارِه ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلِّي معه في المسجد - والله أعلم بما في القلوب - ومعه المصحف فجعل يُذكِّره بالله، ويُلقِّنه كلمة التوحيد، فقال الرجل: هو كافر بالمصحف، وبـ: (لا إله إلا الله)، وخُتِم له على ذلك الحال، فنعوذ بالله - تعالى - من الخِذلان،

ومنهم مَن كان في سكرات الموت، فيقولون له: قل: (لا إله إلا الله)، فيقول: "هل رأى الحبُّ سُكَارى"، ومنهم مَن قال: "إن ربي ظلمني"؛ اهـــ (من محاضرة الشيخ عبدالرحيم الطحان).

- كان هناك رجلٌ كثير الصوم والتعبُّد، اشتدَّ به الألم عند الموت، فقال: "لقد قلَّبني الله في أنواع البلاء، فلو أعطاني الفردوس ما وفَّى بما يجري عليَّ، ثم صار يقول: وأي شيء في هذا الابتلاء من المعنى، إن كان موتًا فيُجَوز، وأما هذا التعذيب فأي شيء مقصود منه؟ ثم هلك".

فهذا الرجل مُعترِض على قضاء الله، جاهل بحكمة الابتلاء، والتي هي لَمحْو الذنوب، أو لرفع الدرجات، فالرجل تكون له عند الله المنزلة فما يبلُغها بعمله، فما زال الله يبتلِيه بما يكره، حتى يبلغه إياها.

قال ابن القيم - رحمه الله - كما في كتابه "طريق الهجرتين" (ص308):

"والحكايات في هذه كثيرة جدًّا، فمَن كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال حياته، وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومَن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته، فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت، وما لم يُدرِكه عناية ربه، ولأجل هذا كان جديرًا بالعاقل أن يُلزِم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان؛ لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقِيَ شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يُعِيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته".

- **علامات سوء الخاتمة عند التغسيل:**

يقول الشيخ القحطاني في محاضرة له بعنوان "تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان" (صـــ47):

"إن بعض الأموات عندما كنتُ أُغسِّلهم كان بعضهم تنقلب بشرتُه إلى السواد، وبعضهم يَقبِض يده اليمنى، وبعضهم يُدخِل يده في فَرْجِه، وبعضهم تشمُّ رائحة الشِّواء من فَرْجِه، وبعضهم تسمع كأن أسياخًا من نار أُدخِلت في فرجه، يقول: ولقد جِيء بميتٍ، فما ابتدأنا بتغسيله حتى انقلب لونه كأنه فحمة سوداء، وكان قبل ذلك أبيض البشرة، فخرجتُ من مكان التغسيل وأنا خائف، فوجدت رجلاً، فقلت: أنت أبوه؟ قال: نعم، قلت ما شأن الرجل؟ قال: هذا الرجل كان لا يصلِّي، فقلت له: خُذْ ميتك فغسِّله".

وقال الشيخ القحطاني أيضًا:

"ولقد حدَّثني عدد ممَّن يُغسِّلون الموتى من مناطقَ مختلفة عن بعض ما شاهدوه أثناء التغسيل من هذه العلامات، والغريب في الأمر أنهم يتَّفِقون على صفات معينة يرونها على هؤلاء الموتى؛ من ذلك أن الرجل الذي يموت على الخير يبدو وكأنه نائم، وأما مَن مات على خلاف ذلك، فيظهر عليه الفزع وخوف الموت مع تغيُّر في وجهه.

ولقد حدَّثني أحدُهم، فقال: "غسَّلتُ رجلاً وكان لونه مصفرًّا، وفي أثناء التغسيل أخذ لونه يتغيَّر إلى السواد من رأسه إلى وسطه، فما انتهيتُ من التغسيل فإذا به قد أصبح كالفحمة السوداء.



وحدَّثني مُغَسِّلٌ آخر، فقال: "إنه غسَّل رجلاً وكان لونه مصفرًّا، فلما فرغوا من التغسيل اسودَّ وجه ذلك الرجل، فقلت له: أسود مثل لحيتي، قال: لا، أسود كالفحم، قال: ثم صار يخرج من عينيه دم أحمر، وكأنه يبكي الدم والعياذ بالله".

وحدَّثني مُغَسِّلٌ آخر فقال: "إنه دخل ذات مرة على بعض الإخوان وهم يغسِّلون ميتًا، قال: فرأيت وجهَه مسودًّا كأنه قرص مُحترِق، وجسمه أصفر، ومنظره مخيف، ثم جاء بعض أهله لينظروا إليه، فلما رأوه على تلك الصورة فرُّوا هاربين خوفًا منه".

• **علامات سوء الخاتمة عند الدفن:**

قال الشيخ القحطاني في "تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان":

"دفنتُ رجلاً فبعدما انتهيتُ، إذ جاءت جنازة أخرى، فقال أحدهم: بالله عليك أن تساعدنا في دفن هذا الرجل، فواللهِ لا نحسن الدفن، قال الشيخ: فوضعته في القبر وطلبت لبنةً أضعها تحت رأسه، ووجَّهته للقِبْلة، فإذا برأس هذا الميت قد تحوَّل - عياذًا بالله - عن القِبْلة، فحوَّلت رأسه مرة ثانية، ولكن في هذه المرة وجدت عينيه قد فُتحتا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القاني، فداخلني الخوف والوَجَل، حتى إن رجليَّ لم تستطعيا أن تحملاني داخل القبر، فحوَّلت وجهه للمرة الثالثة، ولكنه أيضًا تحوَّل؛ فتركته وهربت من القبر نهائيًّا".

وقال الشيخ أيضًا: "وأما ما ظهر عند الإنزال في القبر - والعياذ بالله - فحدَّثني أحد المُغَسِّلين، فقال: غسَّلتُ عددًا كبيرًا من الموتى لسنين طويلة، وأذكر أني وجَّهت أكثر من مائة ميت، كلهم صُرفت وجوههم عن القبلة".

وحدَّثني مُغَسِّل آخر، فقال: "عندما وضعتُ أحد الموتى في قبره ووجَّهته نحو القِبْلة، رأيت وجهه قد تحوَّل إلى أسفل ودخل أنفه في التراب، ثم وجَّهته إلى القبلة ووضعت تحت رأسه ترابًا، ولكنه عاد وأدخل أنفه في التراب، ثم وضعتُ رملاً أكثر في هذه المرة حتى لا يعود، ولكنه عاد وأدخل أنفه في التراب، و لم أزل معه حتى تكرَّر الأمر خمس مرات، فلمَّا يئست منه، تركته وأغلقت القبر".

قال القرطبي في كتاب "التذكرة"(170/1):

"إنه تُوفِّي بعض الولاة بقسطنطينية، فحفر له، فلما فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر، إذ بحَيَّة سوداء داخل القبر، فهابوا أن يدخلوه فيه، فحفروا له قبرًا آخر، فإذا بتلك الحية، فلم يزالوا يحفرون له نحوًا من ثلاثين قبرًا، وإذا بتلك الحية تتعرَّض لهم في القبر الذي يريدون أن يدفنوه فيه، فلما أعياهم ذلك سألوا ما يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها، نسأل الله السلامة والستر في الدنيا والآخرة"؛ اهـ.

وحدثت هذه الحادثة في هذا الزمان، فقد جاء في "رسالة عاجلة إلى المسلمين" (ص46 - 50):





"إن أحد الفضلاء قال: كنا في رحلة دعوية إلى الأردن، وفي ذات يوم وقد صلينا الجمعة في أحد مساجد مدينة الزرقاء، وكان معنا بعض طلبة العلم وعالم من الكويت، وبينما نحن جلوس في المسجد وقد انصرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعي وهم يصيحون: أين الشيخ؟ أين الشيخ؟ وجاؤوا إلى الشيخ الكويتي، فقالوا له: يا شيخ، عندنا شاب تُوفِّي صباح هذا اليوم عن طريق حادث مروري، وإننا عندما حفرنا قبره إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم في القبر، ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندري كيف نتصرف؟ فقام الشيخ وقمنا معه، وذهبنا إلى المقبرة، ونظرنا في القبر، فوجدنا فيه ثعبانًا عظيمًا، قد التوى رأسه في الداخل وذيله من الخارج وعينه بارزة يطالع الناس، فقال الشيخ: دعوه واحفروا له مكانًا آخر، فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائة متر تقريبًا، فحفرنا، وبينما نحفر في نهايته إذا بالثعبان يخرج، فقال الشيخ: انظروا القبر الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى، قال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا ورابعًا سيخرج الثعبان، فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه، فجاؤوا بأسياخ وعِصِي فأخرجوه، ولكنه لما خرج من القبر جلس على شفيره، والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناسَ ذعرٌ وخوفٌ، حتى إن بعضهم حصل له إغماء فحملته سيارة الإسعاف، وحضر رجال الأمن ومنعوهم من دخول القبر إلا للعلماء وذوي الميت، وأبعدوا ذلك الثعبان وأدخلوا الميت القبر، وإذا بتلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار، ثم دخل القبر، فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت، وبدأ من رجليه حتى وصل رأسه، ثم اشتد عليه فحطَّمه، يقول الراوي: إنَّا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكرَّاث، يقول الراوي: ثم لما هدأت الغبرة، وسكن الأمر، جئنا لننظر في القبر، وإذا الحال كما هي عليه من تلوِّي ذلك الثعبان على الميت، وما استطعنا أن نفعل شيئًا، قال الشيخ: اردموه، فدفناه، ثم ذهبنا إلى والده، فسألناه عن حال ابنه الشاب، فقال: إنه كان طيبًا مطيعًا، إلا أنه كان لا يُصلِّي، نعوذ بالله من سوء الخاتمة".

• **علامات سوء الخاتمة بعد الدفن:**

فمن ذلك ما رواه مسلم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: "كان منا رجلٌ من بني النجَّار قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق هاربًا حتى يلحق بأهل الكتاب، قال: فرفعوه، وقالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - فأعجبوا به، فما لبث أن قصم الله عُنُقه فيهم، فحفروا له فوَارَوه، فأصبحت الأرضُ قد نبذته على وجهِها، ثم عادوا فحفروا له فوَارَوه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فتركوه منبوذًا".



وذكر ابن القيم - رحمه الله - في كتابه "الروح" قال:

"حدَّثني صاحبنا أبو عبدالله محمد بن الوزير الحرَّاني: أنه بعد غروب الشمس توسَّط القبور، فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج، والميِّت في وسطه، فجعلت أمسح عيني، وأقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم التفتُ إلى سور المدينة، فقلت: والله ما أنا بنائم، ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش، فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكلُ، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر، فإذا به مكَّاس قد تُوفِّي ذلك اليوم"[1].

وقصة أخرى حدثت في هذا العصر مُفَادُها: "أنه كان هناك رجل يعمل نبَّاشًا للقبور، فلما تاب إلى الله، سأله أحد العلماء، ما السر في توبتك؟ فقال الرجل: لقد كنت أنبش قبور المسلمين بعد دفنهم، لأسرق الأكفان والأسنان الذهبية... وغير ذلك، فنبشت ألف قبر، فما وجدت واحدًا منهم موجَّهًا للقبلة، مع أن أقاربه دفنوه منذ ساعات، وتركوه موجَّهًا للقبلة، فقلت في نفسي: ما الذي حوَّلهم عن القبلة؟ فقلت: إن ما فعلوه في الدنيا ظهر في قبورهم، فعزمت على أن أتوب قبل أن يأتيني ملك الموت وأنا على تلك الحال".

ثالثًا: أسباب سوء الخاتمة:

مَن ساءت خاتمتهم في الدنيا، ساءت عاقبتُهم في الآخرة، وهؤلاءِ ما قادَهم إلى هذه النهاية المُخزِية إلا جملة من الأسباب، والتي لا بدَّ أن يعلمها كلُّ مؤمن، حتى يكون منها على حذر، ومن هذه الأسباب:

1- فساد المعتقد والتَّعبُّد بالبدع:

وهو أن يعتقد الإنسانُ في ذات الله - تعالى - أو صفاتِه أو أفعاله خلافَ الحق، إما تقليدًا، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بان له بطلان ما اعتقده، فظن أن جميع ما اعتقده لا أصل له.

• فهذا هو ابن الفارض عمرُ بن علي الحمويُّ المتوفَّى سنة 632هـ، والذي كان يقول وينعق بالحلول والاتحاد، ويقول بحلول الله - جل وعلا - في مخلوقاته، وأن العبد هو الرب، والرب عبد، قال عند موته وهو يحتضر بيتين من الشعر، يعبِّر فيهما عن شقوته، وعن هلاكه، جعل يبكي ويقول:

---

1 رُوِيت حكايات كثيرة من أحوال الناس في الدَّفن وفي القبور، لا نقطع بصحة جميعها، لكن نشير إجمالاً بأنه يمكن لآحاد الناس أن يطَّلع على شيء من أحوال القبور في اليقظة والمنام، كما أشار إلى ذلك الأئمة الأعلام:

• يقول شيخ الإسلام ابن القيم - رحمه الله - كما في مجموع الفتاوى (456/5: "قد سمع غير واحد أصوات المُعَذَّبين في قبورهم، وقد شُوهِد مَن يخرج من قبره، وهو يُعَذَّب".

• ويقول ابن القيم - رحمه الله - كما في "كتابه الروح" (ص 93: "رُؤْيَة أحدهم النار في قبره كرؤية الملائكة والجن، تقع أحيانًا لَمن شاء الله - سبحانه - أن يطلعَه عليه، وغَيَّبهُ عن غيره"؛ اهـ باختصار وتصرف.

• وقال ابن رجب - رحمه الله - في كتابه "أهوال القبور" (ص15: "قد أطْلَعَ اللهُ مَن شاء من عباده على كثيرٍ مما ورد في هذه الأحاديث حتى سَمِعوه وشاهدوه عيانًا"؛ (تذكير النفوس المؤمنة للشيخ أحمد فريد - حفظه الله.



إن كان منزلتي في الحبِّ عندكمُ = ما قد رأيتُ فقد ضيَّعتُ أيامي

أمنيةٌ ظفرتْ نفسي بها زَمَنًا = واليومَ أحسبُهَا أضغاثَ أحلامِ

قال ذلك عندما عاين سخط الله - جل وعلا - وكشف له عن حقيقة أمره؛ (رسالة عاجلة إلى المسلمين لعبدالحميد عبدالرحمن السحيباني).

وكم خُتِم لكثير من البشر بهذا، عندما ابتدعوا في دين الله - عز وجل - وزاغوا وانحرفوا عن صراط الله المستقيم، وظهرت حقيقتهم في أول لقاء لهم مع ربِّ العالمين - سبحانه - فإن أهل البدع هم أكثر الناس شكًّا واضطرابًا عند الموت، وذلك لسوء معتقدهم، وفساد قلوبهم، ومرضها بالشبهات والشكوك؛ فهم الذين قال الله - عز وجل - عنهم: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: 47]، وقال - تعالى -: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103 - 104].

2- تعلُّق القلب بغير الله:

فإذا تعلَّق القلب بالله - عز وجل - فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، ومهما تعلَّق بغير الله - عز وجل - فإنه يشقى في الدنيا والآخرة؛ ففي القلب فقر واضطرار إلى الله - عز وجل - لا يسعد إلا بمعرفته، ولا يطمئن إلا بطاعته وعبادته وذكره، قال - تعالى -: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]، فإذا تعلق القلبُ بغير الله محبةً، أو توكلاً، أو خوفًا، أو رجاءً، فلا بد أن يشقى العبد، فهو تَعِيس غير سعيد، والأمر كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في "صحيح البخاري": ((تَعِس عبدُ الدينار، وعبدُ الدِّرهم، وعبد الخَمِيصة، وعبد القَطِيفة)).

وجاء في محاضرة بعنوان "قصص واقعية عن بعض الموتى" لمجموعة من الدعاة:

"أن رجلاً تعلَّق قلبُه بحب المال تعلقًا شديدًا، وقد بلغ من الكبر عِتِيًا، ليس له أحدٌ يَرِثه، لا زوج ولا ولد، ولا قريب ولا حبيب، فلما حانت ساعته الأخيرة، ما كان منه إلا أن جمع ذهبه أمامه، وجعل بجواره زيتًا، وهو يخاطب الذهب، ويقول: يا حبيبي، يا مَن أفنيت فيك عمري، أموت وأتركك لغيري، لا والله، أنا أعلم أن موتي قريب، وأن مرضي خطير، ولكني سأدفنك معي، ثم جعل يأخذ دينار الذهب، ويغمسه في الزيت ويهوي به إلى فمه ليبلعَه، فإذا بلعه أصابته كحَّة شديدة، تكاد أن تذهب بروحه، ثم يأخذ نفسًا ويرفع دينارًا ثانيًا، ثم يغمسه في الزيت ويهوي به إلى فمه... وهكذا، حتى مات من جرَّاء ذلك"؛ اهـ.

فاجعل حبَّك الأول والأكبر والأعظم لله ولرسوله، ولا تجعل حبَّ الآباء، أو الأبناء، أو الإخوان، أو الأزواج، أو العشيرة، أو المال، يطغَى على حبك لله ولرسوله، قال - تعالى -: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ

تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

وصدق القائل حيث قال:

أنتَ القتيلُ بكلِّ مَن أحببتَه = فاخترْ لنفسِك في الهوى مَن تَصْطفِي

فكل مَن أحب شيئًا غير الله عُذِّبَ به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يُعذب به قبل حصوله حتى يحصُل عليه، فإذا حَصَل عليه عذِّب به حال حصولِه بالخوف من سلبه وفواتِه، فإذا سُلِبه اشتدَّ عليه عذابُهُ، فهذه ثلاثةُ أنواع من العذاب في هذه الدار, وأما في البرزخ، فعذابٌ يقارنه ألمُ الفراقِ الذي لا يرجو عَوْدَه، وألمُ فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألمُ الحجاب عن الله، وألمُ الحسرة والتي تقطعُ الأكباد، فالهمُّ والغمُّ والحسرة والحزنُ تعمل في نفوسهم نظيرَ ما تعمل الهوامُّ والديدانُ في أبدانهم، بل عملُها في النفوس دائم مستمر، حتى يردَّها الله إلى أجسادها، فحينئذٍ ينتقلُ العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرُّ"؛ (الداء والدواء لابن القيم - رحمه الله).

فلا يجوز للعبد أن يعلِّق قلبه بغير الله - عز وجل - لأن ذلك قد يغلب على قلبه، ويشغل خاطره عن ذكر الله في الدنيا وعلى فراش الموت.

وهذه بعض الأمثلة لَمن غلب على قلبه محبة غير الله، فكان ذلك من أسباب سوء الخاتمة:

1 - ذكر ابن القيم - رحمه الله - كما في كتابه "الداء والدواء" (صـــ 200): "أن رجلاً تعلَّق بشخص وأحبَّه، حتى وقع ألَمٌ به، فتمنَّع عنه، واشتدَّ نفارة منه، فاشتد المرض بهذا البائس المحب حتى لزم الفراش - فراش الموت - فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعوده - أي يزوره - فأخبر بذلك هذا البائس بهذا الخبر، ففرح واشتد فرحه وسروره، وانجلى عنه بعض ما كان يجده، وبينما كان الرجل في الطريق لزيارته، رجع، وقال: والله لا أدخل مداخل الريب، ولا أُعرِّض نفسي لمواقع التهم، فأُخْبِر بذلك البائس المسكين، فسقط في يده ورجع إلى أسوأ ما كان، وبدت علامات الموت عليه، حتى قال في آخر رمق له وكان آخر ما قال:

أسلمُ يا راحةَ العليلِ = ويا شِفَا المُدْنف[1] النَّحِيلِ

رضاكِ أشهى إلى فؤادي = من رحمةِ الخالقِ الجليلِ

فقال الراوي: يا فلان، اتَّقِ الله - تعالى - فقال: قد كان ما كان، فقال الراوي: فقمتُ عنه، فما جاوزت باب داره، حتى سمعت صيحة الموت، فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة".



1 الدَّنف: هو المرض الشديد الملازم لصاحبه، وتطلق كثيرًا على المريض من الحب والهيام.

2- وهناك قصة ذكرها الشيخ "سعد البريك" في محاضرة له بعنوان: "وهل من عودٍ قبل الموت؟"، وذكر فيها "أن شابًّا سافر إلى بانكوك، وتعرَّف هناك على فتاة بغيٍّ، فشغف قلبه بها، وأصبح لا يحتمل فراقها، وارتكب معها من المعاصي والمحرَّمات ما تقشعر من هوله قلوب المؤمنين، وما زال على تلك الحال من التعلُّق بها، حتى صار لا يطيق أن يعيش يومًا بدونها، وفي أحد الأيام تأخرت عن القدوم إليه، فطار صوابه، وأصابه الهمُّ والضيق، وكاد يفقد عقله، فلما قدمت إليه زال حزنه، وانفرج همه، واستقبلها استقبالاً خططت له الشياطين طويلاً، فلم يجد ذلك المخذول المهان شيئًا يعبِّر به لها عن مدى فرحتِه بقدومِها، سوى أن يسجدَ لها من دون الله - تعالى، نعم، سَجَد لها، ولكنها كانت السجدة الأخيرة، فما قام منها إلا إلى قبره، نعوذ بالله من الخِذلان"؛ اهـــ.



3 - وهناك قصة أخرى لمخذولٍ عند الموت، عندما قيل له: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تَعِبت = أين الطريقُ إلى حمَّام منجابِ

وهذه الأبيات لها قصة ذكرها القرطبي في كتابه "التذكرة" عن أبي محمد عبدالحق أنه قال في كتابه "العاقبة": "هذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء باب داره، وكان يشبه باب حمَّام للنساء يُسَمَّى "حمَّام منجاب"، فمرَّت به جارية لها منظر، وهي تقول: "أين الطريق إلى حمَّام منجاب"، فقال لها: "هذا حمَّام منجاب"، وأشار إلى داره، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسَها معه في داره وليس بحمَّام، علمت أنه خدعها، أظهرت له البِشْر والفرح باجتماعِها معه على تلك الخلوة، وفي تلك الدار، وقالت له: يصلح ليكون معنا ما نطيِّب به عيشنا، وتقرُّ به أعيننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وبكل ما تشتهين، فخرج وتركها في الدار و لم يقفلها، وتركها محلولة على حالها ومضى، فأخذ ما يصلح لهما، ورجع ودخل الدار، فوجدها قد خرجت وذهبت و لم يجد لها أثرًا، فهام الرجل بها، وأكثر الذكر لها، والجزع عليها، وجعل يمشي في الشوارع والأزقة، وهو يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تَعِبت = أين الطريقُ إلى حمَّام منجابِ

وإذ بجاريه تجاوبه من طاقةٍ، وهي تقول:

هلاَّ جعلت لها إذ ظَفِرتَ بها = حِرزًا على الدارِ أو قُفْلاً على البابِ

فزاد هيمانه، واشتد هيجانه، و لم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر، فنعوذ بالله من المحن والفتن، فاعتبروا يا أولي الأبصار، فمَن لم يعتبر بغيره صار عبرة لغيره".

3- مخالفة الظاهر للباطن:

قال ابن رجب - رحمه الله -: "خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد، لا يطَّلِع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ... ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية تُوجِب سوء الخاتمة عند الموت"؛ اهـ.

فقد يكون العبد بظاهرِه يعمل بطاعة الله - عز وجل - ولكنه يُبطِن النفاق أو الرياء، أو في قلبه مرضٌ؛ كالكِبر أو العُجب، فيظهر ذلك عليه في آخر عمره، ويُختَم له بذلك، وصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قال كما عند البخاري: ((إن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار)).

فقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((فيما يبدو للناس))، يدل على أن باطنه خلاف ظاهره، ولا يمكن أن تسوء خاتمةُ مَن صَلَح ظاهره وباطنه.





قال أبو محمد عبدالحق الإشبيلي:

"اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لِمَن استقام ظاهرُه وصَلَح باطنه، وما سُمِع بهذا ولا عُلِم به - والحمد لله - وإنما تكون لمن كان له فسادٌ في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غَلَب ذلك عليه حتى يترل به الموت قبل التوبة، فيَصْطَلِمه الشيطان[1] عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، أو يكون ممَّن كان مستقيمًا، ثم يتغيَّر عن حاله، ويخرج عن سننه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته، وشؤم عاقبته:

- كإبليس الذي عبَدَ الله - فيما يُروَى - ثمانين ألف سنة.
- وبلعام بن باعوراء، الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض واتَّبع هواه.
- وبرصيصا العابد، الذي قال الله في حقه: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ} [الحشر: 16].

قال أحد السلف: "إذا استوى ظاهر المسلم وباطنه، فهذا هو الإنصاف والعدل، وإذا كان الباطن خيرًا من الظاهر فهذا هو الفضل، وإذا كان الظاهر خيرًا من الباطن فهذا هو الجور".

وكان الصحابة ومَن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه.

- فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يسأل صاحب سرِّ النبي - صلى الله عليه وسلم - في الفتن والمنافقين - حذيفة بن اليمان رضي الله عنه - فيقول: "أسألك بالله، هل سمَّاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المنافقين؟ فيقول حذيفة: لا، ولا أؤمِّنُ أحدًا بعدك".

وفي "مسند البزار" - بسند صحيح - عن عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنه - "أنه دخل على أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها - فقال: إني أكثر قريشٍ مالاً، وإني أخشى أن يُهلِكَني مالي، فقالت: تصدَّق؛ فإني سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((إن من أصحابي مَن لا يراني بعد أن أفارقه))، فخرج عبدالرحمن وهو منقطع قلبه من الخوف، فالتقى بعمر - رضي الله عنه - وأخبره بالأمر، فدخل على أم سلمة فقال: أسألك بالله، هل أنا منهم؟ فقالت: لا، ولا أُبَرِّئُ أحدًا بعدك".

وقفة:

يقول ابن رجب - رحمه الله -: "ما عُلِمَ على الإطلاق أن رجلاً خُتِم له بسوء الخاتمة، وقد استقام ظاهره مع باطنه".

وذكر ابن الجوزي - رحمه الله - كما في "فتح الباري": "أن رجلاً يدعى قزمان، وكان قد تخلَّف عن المسلمين يوم أُحُد، فعيَّره النساء، فخرج حتى صار في الصف الأول، فكان أول مَن رَمَى بسهم، ثم صار إلى السيف ففعل العجائب، فلما انكشف المسلمون كسر جفن سيفه، وجعل يقول: الموت أحسن من

---

1 يصطلمه الشيطان؛ أي: يستأصله عن دينه ويقطعه عنه.



الفرار، فمر به قتادة بن النعمان، فقال له: هنيئًا لك بالشهادة، فقال: والله ما قاتلتُ على دينٍ، وإنما قاتلت على حسب قومي، ثم أقلقته الجراحة فقتل نفسه"؛ اهـــ.

فهو في الظاهر جاهد في سبيل الله، ولكن الباطن خلاف ذلك، وهذا يذكِّرنا بأولئك النفر الثلاثة الذين هم أول مَن ستُسعَّر بهم النار؛ فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((إن أوَّل الناس يُقضَى يوم القيامة عليه، رجلٌ استُشْهِد، فأُتِي به فعرَّفه نِعمَه فعَرَفها، قال: فما عَمِلتَ؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه فعَرَفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمتَ العلمَ ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ؛ فقد قيل، ثم أُمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار، ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمَه فعَرَفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحبُّ أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جَوَاد، فقد قيل، ثم أُمِر به، فسُحِب على وجهه، ثم أُلقِي في النار)).

وفي رواية في "غير الصحيح"، قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: "ثم ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رُكْبتِي، فقال: ((يا أبا هريرة، أولئك أولُ خلقِ الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة)).

4- حب المعصية والإصرار عليها:

قال الشيخ صديق حسن خان في كتابه "يقظة أولي الاعتبار" (ص 205):

"فطول الإلْف بالمعاصي يقتضي تذكُّرها عند الموت، وعودها في القلب وتمثُّلها فيه، وميل النفس إليها، وإن قُبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء"؛ اهـــ.

وهذا حال كل مَن أصرَّ على انتهاك المحرَّمات، والعيش في أَسْر الشهوات، فهذا لا بد أن يتذكَّر معاصيَه ومخازيَه عند الموت، وتحضر في قلبه ساعة الرحيل، فتميل نفسُه إليها في تلك اللحظة الحرجة التي تُقبَض فيها روحه، فيختم له بالسوء، عياذًا بالله.

فالإنسان عندما يألف المعصية ولم يَتُب منها، فإن الشيطان يستولي على تفكيرِه، حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، فإذا أراد أقرباؤه أن يُلقِّنوه الشهادة، ليكون آخر كلامه "لا إله إلا الله"، طغت هذه المعصية على تفكيره، فتكلَّم بما يُفِيد اشتغاله بها، وخانه قلبه ولسانه عند الاحتضار، وخُتِم له بالسوء، عياذًا بالله، وقد قيل لأحدِهم عند الاحتضار قل: "لا إله إلا الله"، فجعل يهذي بالغناء، ويقول: تاتنا... تنتنا، ثم قضى.

وقيل لأحدهم عند الاحتضار قل: "لا إله إلا الله"، فقال: "آه... آه لا أستطيع أن أقولها".

وقيل لأحدهم عند الاحتضار قل: "لا إله إلا الله"، فقال: "ما ينفعني ما تقول، و لم أدَعْ معصية إلا ارتكبتها؟ ثم مات و لم يَقُلها".

وقيل لآخر: قل: "لا إله إلا الله"، فقال: "ما يغني عني، وما أعرف أني صلَّيتُ لله صلاة! ومات و لم يَقُلها"؛ (انظر: الداء والدواء لابن القيم، ص142 - 143).

وها هو شابٌّ كان من العابثين اللاهين، "يقود سيارته بسرعة جنونية في طريق مكة إلى جُدَّة، فحدث له حادث مُروِّع، قال الراوي الذي حضر المشهد: ذهبنا إلى السيارة أنا ومَن معي من الإخوة، فلما اقتربنا من الشاب وجدناه في النزع الأخير من حياته, ووجدنا مسجِّل السيارة مفتوحًا على أغانٍ غربية باطلة، وأغلقنا المسجل، ثم نظرنا إلى الرجل وما يعانيه من سكرات الموت، فقلنا: يا هذا، قل: "لا إله إلا الله"، أتدري أخي بماذا تكلم في آخر رمق في حياته؟ ليته ما نطق، لقد قال كلمة رهيبة عظيمة، قال هذا الرجل: ما بِدِّى أُصلِّي ولا بِدَّي أصوم، ثم سب دين الله - عز وجل - ثم مات"؛ (رسالة عاجلة إلى المسلمين لعبدالحميد عبدالرحمن السحيباني).

وقصة أخرى يحكيها أحد الدعاة مُفَادها:

"أن رجلاً كان يحتضرُ، فذهب أولاده إلى جارهم الصالح، وقالوا: إن أبانا يحتضر ولا نُحسِن التصرف، فجاء هذا الرجل الصالح ووجد الرجل يحتضر، والمسجل مفتوح على الأغاني، فَلامَ الشيخُ الأولاد، وقال لهم: إن أباكم يحتضر والمسجل مفتوح على مزامير الشيطان، فأغلق المسجل، وأخرج شريط الأغاني ووضع شريط قرآن مكانه، فإذا بهذا الرجل يقوم من سكرته، ويقول بصوت مرتفع: مَن الذي أغلق الأغاني؟ أنا لا أحب القرآن.. أنا لا أحب القرآن، ثم مات على هذا".

وها هو رجل ممَّن كان يشرب الخمر، أحس ذات يوم بالقيء، فذهب هذا الرجل إلى الحمَّام يتقيأ، فأدخل هذا الرجل رأسه في قاعدة الحمام الإفرنجي، وظل يتقيأ ويتقيأ، حتى خرجت روحه ورأسه في قاعدة الحمام"، وسبحان الله! كم شاهد الناسُ من هذا عبرًا، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم.

يقول ابن القيم - رحمه الله - كما في "الداء والدواء" (ص143).

"فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته، وكمال إدراكه، قد تمكَّن الشيطان منه واستعمله فيما يريده، من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن طاعة الله، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظنُّ عند سقوط قُوَاه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألَمِ النَّزْعِ؟ وجمع الشيطان له كلَّ قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما قدر عليه لينال منه، فهي آخر فرصة للشيطان لينال من هذا الإنسان... فأقوى ما



يكون عليه الشيطان في ذلك الوقت، وأضعف ما يكون عليه الإنسان في تلك الحال؛ فمن تُرى يسلَم من ذلك؟! فهناك {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: 27]، فكيف يوفَّق لحسن الخاتمة مَن أغفل قلبه عن ذكر الله، واتبع هواه، وكان أمره فُرطًا، فقلبه بعيد عن مولاه، غافل عنه، متعبد لهواه، أسير شهواته، ولسانه يابس عن ذكره، وجوارحه معطَّلة عن طاعته، مشتغِلة بمعصيته، فبعيدٌ عن هذا أن يوفَّق لحسن الخاتمة".



ذكر محمد أمين مرزا في رسالة له بعنوان "أخي الشاب إلى أين تسير" (ص10 - 12) قصة مُفَادها:

"أن ثلاثةً من الأصدقاء يجمع بينهم الطَّيش والعَبَث والجنون، كانوا يستدرجون الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ثم ينقلبون إلى ذئاب لا ترحم توسُّلاتِهن، يقول الراوي: ذهبنا كالمعتاد للمزرعة، وكان كل شيءٍ جاهزًا، الفريسة لكل واحدٍ منا، والشراب الملعون، شيء واحد نسيناه وهو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء العشاء بسيارته، وكانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق، ومرَّت الساعات دون أن يعود، وفي العاشرة شعرتُ بالقلق، فانطلقتُ بسيارتي أبحث عنه، في الطريق شاهدتُ بعض ألسنة النار تندلع على جانب الطريق، وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي، والنار تلتهمُها وهي مقلوبة على أحد جانبيها، أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحَّم تمامًا، لكنه كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينيه وأخذ يهذي: النار... النار، فقررتُ أن أحمله بسيارتي وأسرع به إلى المستشفى، ولكنه قال بصوت باكٍ: لا فائدة لن أصل، فخنقتني الدموع وأنا أرى صديقي يموت أمامي، وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له؟! نظرتُ إليه بدهشة وسألته: مَن هو؟ قال بصوت كأنه قادم من بئرٍ عميق: "الله"، أحسستُ بالرعب يجتاح جسدي، وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوِّية، ولفظ آخر أنفاسه، ومضت الأيام، لكن صورة صديقي الراحل وهو يصرخ والنار تلتهمه، ماذا أقول له؟ ماذا أقول له؟ ووجدتُ نفسي أتساءل: وأنا، ماذا أقول له؟ فاضت عيني واعترتني رعشة غريبة، وفي نفس الوقت سمعت المؤذِّن ينادي لصلاة الفجر، الله أكبر.. الله أكبر، فأحسستُ أنه نداء خاص بي، يدعوني إلى طريق النور والهداية، فاغتسلت وتوضأت وطهَّرت جسدي من الرذيلة التي غرقت فيها لسنوات، وأديتُ الصلاة، ومن يومِها لم تَفُتْني فريضة".

5- طول الأمل:

- **وحقيقة الأمل:** الحرص على الدنيا، والانكباب عليها، والحب لها، والإعراض عن الآخرة؛ ولذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((صلاحُ أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويَهلِكُ آخرُها بالبخل والأمل))؛ (رواه أحمد في "الزهد" عن ابن عمرو، وحسَّنه الألباني).

وطول الأمل هو سبب شقاء كثير من الناس، حيث يخدعهم الشيطان، فيُصوِّر لهم أن أمامهم عمرًا طويلاً، وسنين متعاقبة يَبْنُون فيها آمالاً شامخة، فيجمعون همَّتهم لمواجهةِ هذه السنين، ولبناء هذه الآمال، وينسى الآخرة ولا يتذكَّر الموت، وإذا ذَكَره يومًا تبرَّم منه؛ لأنه - في ظنه - ينغِّص عليه لذَّاته، ويكدِّر عليه صفو عيشه.

ولقد حذَّر النبي - صلى الله عليه وسلم - من طول الأمل؛ فقد أخرج البخاري من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: "أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمنكبي، فقال: ((كُنْ في الدنيا كأنك

غريب، أو عابر سبيل))، وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: "وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخُذْ من صحتِك لمرضك، ومن حياتك لموتك"، زاد أحمد والترمذي: "وعُدَّ نفسك من أهل القبور".

- ولقد قال الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - عن هذا الصنف: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: 3].

قال القرطبي - رحمه الله -: "طول الأمل داءٌ عُضَال، ومرض فتَّاك، ومتى تمكَّن من القلب فَسَد وصَعُب علاجه، و لم ينجح فيه دواء، وهو الداء الذي أعيا الأطباء، ويَئِس من شفائه الحكماء والعلماء"؛ اهـ.

فعلى الإنسان أن يتذكر دائمًا وأبدًا أن الموت قد يأتيه في أي لحظة، فليستعدَّ له من الآن.

- فقد أخرج البخاري من حديث أنس - رضي الله عنه - أنه قال: "خطَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطًّا، وقال: ((هذا الإنسان))، وخطَّ إلى جنبه خطًّا، وقال: ((هذا أجَله))، وخط خطًّا آخر بعيدًا منه، فقال: ((وهذا الأمل))، فبينما هو كذلك، إذ جاءه الأقرب".

فيا مَن بدُنْياهُ اشتغلْ = وغرَّه طُولُ الأَمَلْ
وقد مضى في غفلةٍ = حتى دنا من الأَجَلْ
الموتُ يأتي بَغْتةً = والقبرُ صندوقُ العَمَلْ

- وكان عليُّ بن أبي طالب يقول كما عند البخاري معلقًا: "إن أخوف ما أخاف عليكم: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسِي الآخرة".

- ويُروى عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قام على درج مسجد دمشق، فقال: "يا أهل دمشق، ألا تسمعونَ من أخٍ لكم ناصح؟ إن مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرًا، ويَبْنُون مشيدًا، ويؤمِّلون بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وبنيانهم قبورًا، وآمالهم غرورًا، هذه عادٌ قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً، وخيلاً ورجالاً، فمَن يشتري مني اليوم تركتَهم بدِرْهَمين، وأنشد:

يا ذا المؤمِّل آمالاً وإن بَعُدَتْ = منه ويزعمُ أن يَحظَى بأقصاها
أنَّى تفوزُ بما تَرجُوه وَيْكَ وما = أصبحتَ في ثقةٍ من نَيْل أدناها

- وقال الحسن - رحمه الله -: "ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل".

وصدق - رحمه الله - فالأمل يكسل عن العمل، ويُورِث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شُوهِد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطالَب صاحبُه ببرهان، كما أن قصر الأمل يحثُّ على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة، ويظهر أثر قصر



الأمل في المبادرة إلى الأعمال الصالحة، واغتنام الأوقات، فإن الأنفاس معدودة، والأيام مقدرة، وما فات لن يعود".

- وجاء في الأثر: "أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا".

فهيا أخي الحبيب.. خاطب نفسك، وقل لها:

يا نفسُ، قد أَزِفَ الرحيلُ = وأظلَّك الخَطْب الجليلُ

فتأهَّبي يا نفسُ لا = يَلعَبْ بك الأملُ الطويلُ

وليركبنَّ عليك فيـــ = ـــه من الثَّرَى ثقلٌ ثقيلُ

أحبتي في الله، اعلموا أن طول الأمل له سببان:

السبب الأول "الجهل": وهو أن الإنسان قد يعوِّل على شبابه، أو على صحته وعافيته، فيستبعدُ قرب الموت، وأنه بعيد عنه، ومن الجهل ألا يقيسَ الإنسان نفسه بغيره، فكم حَمَل من جنازة و لم يفكِّر لحظة في أنه سيُحمَل! وكم صلَّى على جنازة وما عَلمَ أنه سيأتي يوم سيُصلَّي عليه! وما علم هذا المسكين أن الموت قد يأتيه في أي لحظة، فالموت لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا.

ذكر الغزالي - رحمه الله - في "الإحياء" (149/5) عن الأعمش عن خيثمة أنه قال: "دخل ملكُ الموت على سليمان بن داود - عليهما السلام - فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يُدِيم النظر إليه، فلما خرج، قال الرجل لسليمان: مَن هذا؟ قال سليمان: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليَّ كأنه يريدني، قال سليمان: فماذا تريد؟ قال: أريد أن تُخلِّصني منه، فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند، ففعل ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتك تُدِيم النظر إلى واحد من جلسائي، قال ملك الموت: نعم، كنت أتعجب منه؛ لأني كنت أُمِرتُ أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة، وكان عندك فعجبتُ من ذلك"، (فسبحان الله! هرب من الموت إليه).

وصدق الله حيث قال: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} [الجمعة: 8].

تزوَّد من التقوى، فإنَّك لا تدري = إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ

فكم من فتًى يُمسِي ويُصبِح لاهيًا = وقد نسجتْ أكفانُه وهْو لا يدري

وكم من عروسٍ زيَّنوها لزوجها = وقد قبضت أرواحهم ليلة القدرِ

وكم من صغارٍ يُرتَجى طول عمرِهم = وقد أُدخِلت أجسادهم ظلمة القبرِ

وكم من صحيحٍ مات من غير علَّةٍ = وكم من سقيمٍ عاش حينًا من الدهرِ



السبب الثاني "حب الدنيا": فإن الإنسان إذا أَنِس بها وبشهواتها ولذَّاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبُه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل مَن كره شيئًا دفعه عن نفسه"؛ اهـ باختصار.

رُوِي أن سليمان بن عبدالملك لما دخل المدينة حاجًّا قال: "هل بها من رجلٍ أدرك عدَّة من الصحابة؟ قالوا: نعم، أبو حازم، فأرسلَ إليه، فلما أتاه قال: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمَّرتم الدنيا، وخرَّبتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، ثم قال: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ قال: اعرِض عملَك على كتاب الله، قال: فأين أجده؟ قال: في قوله - تعالى -: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: 13، 14]، قال: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين، قال: يا ليت شعري؟ كيف العرضُ على الله - تعالى - غدًا؟ قال: أما المُحسِن، فكالغائب الذي يقدم على أهله، وأما المُسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان حتى علا صوته واشتد بكاؤه، ثم قال: أوصني، قال: إياك أن يراك الله - تعالى - حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك".

فالإنسان في هذه الحياة الدنيا مشغول بالأماني الباطلة، وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأُنس بها، والغفلة عن قول النبي - صلى الله عليه وسلم - والذي رواه الشيرازي وحسَّنه الألباني: ((أَحْبِبْ مَن شئت فإنك مفارِقُه)).

وما أحسن قول يحيى عن معاذ الرازي - رحمه الله - حيث قال: "الدنيا خَمْر الشيطان، مَن سكر منها لم يُفِق إلا في عسكر الموت، نادمًا مع الخاسرين".

- ومحب الدنيا أشد الناس عذابًا بها، وهو معذَّب في دُورِه الثلاث: يعذَّب في الدنيا بتحصيلها، والسعي فيها، ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ، بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حِيل بينه وبين محبوبه على وجهٍ لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ويعذَّب يوم لقاء ربه؛ قال - تعالى -: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: 55].

قال القرطبي - رحمه الله -: "ومثل هذا من الناس كثيرٌ، فمَن غلب عليه الاشتغال بالدنيا والهمُّ بها أو سبب من أسبابها، حتى إنه حكي لنا أن بعض السماسرة جاء عند الموت، فقيل له: قل: "لا إله إلا الله"، فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف، غلبت عليه السمسرة، ولقد رأيت بعض الحُسَّاب وهو في غاية المرض يعقدُ بأصابعه ويحسب، وقيل لآخر: قل: "لا إله إلا الله"، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلانية اعملوا فيها كذا"؛ اهـ.

وقال ابن القيم - رحمه الله - كما في "الداء والدواء" (ص143):

"وأخبرني مَن حضر بعض الشحَّاذين عند موته، فجعل يقول: "لله.. فِلْس لله" حتى قضى، وأخبرني بعض التجَّار أن قريبًا له احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه: "لا إله إلا الله" وهو يقول: "هذه قطعة رخيصة، هذا مشترًى جيدٌ، هذا كذا، حتى قضى، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرًا! والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم"؛ اهـــ.

وأخيرًا أخي الحبيب، أوصيك بما وصَّى به لقمانُ ابنَه، حيث قال له: "يا بُنَي، بِعْ دنياك بآخرتك تربحْهما جميعًا، ولا تَبِع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعًا".

يا آمنًا من قبيحِ الفِعْل منه أَهَلْ = أَتَاكَ توقيعُ أَمْنٍ أنتَ تملكُهُ
جمعتَ شيئين أمْنًا واتباعَ هوًى = هذا وإحداهُمَا في المرءِ تُهْلِكُهُ
والمحسنون على دَرْبِ المخاوفِ قَدْ = ساروا وذلك دربٌ لستَ تَسْلكُهُ
فرَّطتَ في الزرعِ وقتَ البَذْرِ من سَفَهٍ = فكيف عند حصادِ الناسِ يُدْرِكُه
هذا وأعجبُ شيءٍ فيك زُهْدُكَ في = دارِ البقاءِ بعيشٍ سَوفَ تتركُهُ
مَنْ السفيهُ إذًا بالله، أنت أم الــ = ـــمَغْبُونُ في البيع غبنًا سوف يُدْرِكُهُ

(الداء والدواء لابن القيم: ص113).

6- الانتحار:

إذا ما أصاب المسلمَ مصيبةٌ واحتسب، كانت له أجرًا، وإن جزع وتسخَّط وأحبَّ أن يتخلَّص من هذه المصيبة وتلك المشاكل بقتل نفسه وإزهاقها، فهو يختار لنفسه نوع العذاب الذي يُعذَّب به في الآخرة، فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعنها في النار))، وفي رواية البخاري: ((ومَن قتل نفسَه بشيء عُذِّب به يوم القيامة)).

أخرج البخاري ومسلم عن الحسن قال: "حدَّثنا جُندب في هذا المسجد، وما نسينا منه حديثًا، وما نخشى أن يكون جُندب كذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((كان فيمَن كان قبلكم رجلٌ به جُرح فجزعَ، فأخذ سكينًا فحزَّ بها يَدَهُ، فما رقأ الدمُ حتى مات، قال الله - عز وجل -: عبدي بادَرني بنفسه فحرَّمتُ عليه الجنة)).

وأخرج البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه -: "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - التقى هو والمشركون، فاقتتلوا، فلما مال رسول الله - رحمه الله - إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجل لا يَدَعُ لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

((إنه من أهل النار))، فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبه[1]، قال: فخرج معه، كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجُرِح الرجُلُ جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذُبابَهُ بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسَهُ، فخرج الرجلُ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: ((وما ذاك؟)) قال: الرجُلُ الذي ذكرتَ آنفًا أنه من أهل النار، فأعظَمَ الناسُ ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه، ثُم جرِح جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذُبابَهُ بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسَهُ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك: ((إن الرجُلَ ليعملُ عمل أهل الجنة - فيما يبدو للناس - وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار - فيما يبدو للناس - وهو من أهل الجنة)).

7- مصاحبة الأشرار وأهل السوء:

أخرج الترمذي وأبو داود - وحسَّنه الألباني - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((الرجلُ على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يُخَالِل))؛ (صحيح الجامع: 3545).

وفي "الصحيحين" أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((أنت مع مَن أحببتَ))، فالصاحب ساحب، إما أن يأخذ بيديك إلى مرضاة الله، وإما أن يأخذ بيديك إلى معصية الله - عز وجل.

فكم من أناسٍ عاشوا على طاعة الله، فلما اختلطوا بالعُصَاة والأشرار، فإذا هم ينتكسون على أعقابهم، وينغمسون في الذنوب والمعاصي، ويموتون على ذلك، بل ومنهم مَن يموت على الكفر بعد الإيمان، ومنهم من يُحَال بينه وبين الإيمان، بسبب مصاحبة الأشرار.

1- فها هو عُقبَة بن أبي مُعَيط الذي مات على الكفر بسبب صحبة السوء، فقد رُوي كما في تفسير البغوي: "أن عقبة كان صديقًا لأُبَيِّ بن خَلَف، فصنع عُقْبة وَلِيمة فدعا إليها قريشًا، ودعا رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - فلما قُدِّمَ الطعامُ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أني رسول الله)) ففعل، فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من طعامِه، فلما بلغ أُبَيَّ بن خلف ذلك، قال لصديقه عُقْبة: أصبَأْتَ؟ قال: لا، ولكن دخل عليَّ رجل عظيم، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة، فقال له أُبَي بن خلف: وجهي من وجهك حرام، إن رأيت محمدًا حتى تبزق في وجهه، وتطأ على عنقه، وتقول: كيت، وكيت، ففعل عدوُّ الله ما أمره به خليله، فأنزل الله: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29].

---

1 أنا صاحبه: يعني: أنا أصحبه.



2- وأخرج الإمام مسلم من حديث سعيد بن المسيِّب عن أبيه قال: "لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ، جاءه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجد عنده أبا جهل، وعبدالله بن أبي أميَّة بن المُغِيرة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((يا عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهدُ لك بها عند الله))، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغبُ عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرِضُها عليه ويُعِيدُ له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على ملة عبدالمطلب، وأَبَى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك))، فأنزل الله - عز وجل -: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: 113]، وقال الله - تعالى - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: 56]"؛ (رحلة إلى الدار الآخرة صـــ 78 - 88).

3 - وها هم أربعةٌ من الشباب "ممَّن كانوا على الإثم والعدوان، يجتمعون على الفجور والزنا، لا يسمعون ببلد يكثر فيها الخَنَا والفجور إلا سافروا إليها، وفي بلد من البلدان - والتي مكثوا فيها أكثر من أسبوع - وهم بين زنا وخمور وأفعال لا ترضي الرحمن، وفي ذات ليلة وفي ساعة متأخِّرة من الليل، وبينما هم في غمرة اللهو والمُجُون، إذا بأحدِ الأربعة يَسقُط مغشيًّا عليه، فيُهرَع إليه أصحابه الثلاثة، فيجدونه في أنفاسه الأخيرة، فيقول له أحدهم: يا أخي، قل: لا إله إلا الله، فيرد الشاب ويقول: إليك عني، زدني كأس خمر، وتعالي يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله - عز وجل - وهو في تلك الحالة السيئة؛ ليجعل الله قصَّته عبرة لَمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فعادوا إلى بلادهم وهو معهم، ولكنه محمولٌ في تابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكَّدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد، فاللهم ارزقنا حسن الخاتمة"؛ اهـــ (رسالة عاجلة إلى المسلمين، عبدالحميد بن عبدالرحمن السحيباني: ص53 - 55).

قال الذهبي - رحمه الله - في كتابه "الكبائر": "ما من ميتٍ يموت إلا مثِّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم".

- واحتضر رجل ممَّن كان يلعب بالشطرنج، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: شاهك؛ ثم مات، فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب مع أصحابه.

- واحتضر رجل ممَّن كان يجالس شُرَّاب الخمر، فجاءه رجل يلقِّنه الشهادة، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: اشرب واسقني، ثم مات، فلا حول ولا قوة إلا بالله"؛ اهـــ من كلام الذهبي.



8- عدم الاستقامة على الطاعة:

فلا شك أن أهل الاستقامة على دين الله يثبِّتهم الله - عز وجل - في الدنيا، فلا يَزيغُوا ولا يَضِلُّوا، ويثبِّتهم عند الموت بـــ: (لا إله إلا الله)، ويثبِّتهم في القبر عند سؤال المَلَكين، قال - تعالى -: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: 27].

وهم الذين تتنَزَّلُ عليهم الملائكة عند الموت لتبشرهم بالجنة، قال - تعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: 30 - 32].

وأما مَن كان مستقيمًا على طاعة ربه، ثم تغير حاله وخرج ممَّا كان عليه، فهؤلاء الذين يختم لهم بخاتمة السوء، عياذًا بالله، فالواجب على المسلم الالتزام بدين الله، وأن يأخذَ بأسباب الثبات على دين الله، والحذر من وَسَاوس الشيطان، والاجتهاد في الطاعات والعبادات، حتى تقوى شجرة الإيمان في قلبه، فلا تزعزعها رياح الشهوات والشبهات، وحتى يَثبُت على الإيمان في الحياة الدنيا وعند الممات.

قيل لأحد العلماء: "فلان عَرَف طريق الله ثم رجع عنه، فقال: لو وَصَلوا إليه ما رجعوا".

- فمن عَرَف طريق المَلِك - جل وعلا - ثم أعرض عنه وتنكَّبه، واختار طرق الغواية والضلال، وآثر الغَيَّ على الرشاد، والضلالة على الهدى، والفجور على التُّقَى، كان ذلك من أعظم أسباب سوء الخاتمة، وصدق ربنا حيث قال: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: 5].

• فهذه سنة ربَّانية مع أهل الأهواء، والذين تتقاذفهم أمواج الفتنة والشهوات، بل انظر خطاب رب العالَمين للنبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قال له في كتابه الكريم: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر: 65، 66].

وهذا الخطاب موجَّه إلينا نحن أمة النبي؛ لأنه لا يُتصوَّر شرعًا ولا عقلاً أن يُشرِك النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي جاء ليبني صرح التوحيد، وكأن الله - تعالى - يقول لنا: هذا هو نَبِيِّي وخليلي، لو أشرك لأحبط عمله، فكيف أنتم؟ ومع هذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يخاف على نفسه، ويستعيذ من الحَوْر بعد الكور؛ أي: النقصان بعد الزيادة.

ففي "صحيح مسلم" من حديث عبدالله بن سَرْجس - رضي الله عنه - قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتعوَّذ من وَعْثاء السفر، وكآبة المَنظَر، وسوء المُنقلب، والحَوْر بعد الكَوْر".

فكم سَمِعنا عمَّن آمن ثم كفر، وكم رأينا مَن استقام ثم انحرف؛ ولذلك كان كثيرًا ما يردِّد النبي - صلى الله عليه وسلم - في دعائه: ((يا مقلِّب القلوب، ثَبِّت قلبي على دينك))، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد - بإسناد صحيح - من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: "كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يُكثِر أن يقول: ((يا مقلِّب القلوب، ثَبِّت قلبي على طاعتِك))، فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فهل تخشى؟ قال: ((وما يؤمنني يا عائشة، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار، إذا أراد أن يُقلِّب قلبَ عبدٍ قلَّبه)).

فإذا كان هذا هو أكثر دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - والذي غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر - وهو سيد الأولين والآخرين - فماذا نقول نحن أصحاب الذنوب والمعاصي؟

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني (446/2) في كتابه "الإصابة في تمييز الصحابة" قولَ ابن كثير: كان الرَّجَّال بن عُنفَوة قد وفد إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقرأ البقرة، وجاء زمن الردَّة إلى أبي بكر، فبعثه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الإسلام ويثبِّتهم عليه، فارتدَّ مع مسيلمة، وشهد له بالنبوة، وكان الرَّجَّال يقول: كبشانِ انتطحا فأحبُّهما إلينا كبشُنا؛ يعني: مسيلمة، ولقد قُتل هذا الكذَّاب الأَشِر في يوم اليمامة، قتله زيد بن الخطاب، اللهم لا تجعلنا ممَّن يفضحُه ميراثه عند موته وعند القدوم عليك... آمين.

فإيَّاك أخي أن تتجرَّأ على حُرُمات الله، وتعرِّض نفسك للفتن، فمَن عرَّض نفسه للفتن فلا يلومنَّ إلا نفسه، ومَن تشرَّف له تستشرفه ولم ينجُ منها، ومَن يسمح لقدمِه أن تتزلقَ في مستنقع الرذيلة، فلا يدري إلى أين تصل؟!

- كإبليس الذي كان في ابتدائه ما كان، ثم عصى الله، فطرده الله من جنته ورحمته.

- وكبلعَام بن باعوراء الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتبع هواه وكان من الغاوين.

- وكعبيدالله بن جحش الذي هاجر إلى الحبشة، فارتد ودخل في النصرانية؛ فخرج من النور إلى الظلمات.

- وخرج في زمن أبي بكر - رضي الله عنه - بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - خلقٌ كثير فقاتلهم أبو بكر - رضي الله عنه.

- وارتدَّ كذلك خلق في عهد خلافة عمر - رضي الله عنه - فمنهم ربيع بن أمية بن خلف، وكان في عداد الصحابة؛ حيث كان رجلاً شرَّابًا للخمر فحدَّه عمر - رضي الله عنه - ثم نفاه إلى خيبر، ففر هاربًا إلى هرقل، فارتد عن دينه ودخل في النصرانية من أجل الخمر.

فنعوذُ بالله من الخِذلان، ومن سوء العاقبة، ونسأله - سبحانه وتعالى - أن يُثبِّتنا على الإيمان إلى أن نلقاه.

وذكر ابن القيم في كتابه "الداء والدواء" (ص170): "أن عبدالحق الإشبيلي - رحمه الله - قال: ويُروَى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار؛ فافتتن بها فترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك، قالت: لماذا؟ قال: لقد سلبت لُبي، وأخذت بمجامع قلبي؟ قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا؟ قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوِّجني منك، قال: أتنصَّر؟ قالت: إن فعلتَ أفعل، فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معها في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم، رقى إلى سطحٍ كان في الدار، فسقط منه فمات، فلم يظفر بها وفاتَه دينُه.

وأخرج عبدالرزاق في "تفسيره" عن طاوس بن كيسان قال: كان رجلٌ من بني إسرائيل، وكان عابدًا، وكان ربما داوى المجانين، وكانت امرأة جميلة أخذها الجنون فجِيء بها إليه، فتُركت عنده فأعجبته فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان، فقال: إن عُلِم بهذا افتضحتَ فاقتلها وادفنها في بيتك، فقتلها ودفنها في بيته، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها، فقال: ماتت، فلم يتهموه لصلاحه فيهم ورضاه، فجاءهم الشيطان، فقال لهم: إنها لم تَمُت ولكنه وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها، وهي في بيته في مكان كذا وكذا، فجاء أهلها فقالوا: ما نتهمك ولكن أخبرنا أين دفنتها؟ ومَن كان معك؟ ففتشوا بيته فوجدوها حيث دفنها، فأُخذ فسُجن، فجاء الشيطان، فقال: إن كنت تريد أن أخلصك مما أنت فيه وتخرج منه فاكفر بالله، فأطاع الشيطان وكفر، فأُخِذَ وقُتل، فتبرَّأ منه الشيطان حينئذ"؛ قال طاوس: فما أعلم إلا أن هذه الآية نزلت فيه: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: 16].

وذُكِرت هذه القصة بسياق آخر وفيها:

"كان عابد في بني إسرائيل من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بكرًا ليس لهم أخت غيرها، فخرج الثلاثة للجهاد في سبيل الله، فلم يدروا عند مَن يتركون أختهم، ولا مَن يأمنون عليها، ولا عند مَن يضعونها، فأجمعوا رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقة في أنفسهم فأتَوه أن يخلفوها عنده، فتكون في جواره إلى أن يرجعوا من سفرهم، فرفض العابد ذلك، وتعوَّذ بالله - عز وجل - منهم ومن أختهم، فلم يزالوا يُلحُّون عليه حتى أطاعهم وقَبِل، وقال لهم: أنزلوها في بيت بجوار صومعتي، فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زمانًا يترل إليها الطعام من صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام، فتلطَّف به الشيطان فلم يزل به يُرغِّبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا، ويخوفه أن يراها أحدٌ فيعلقها، فلو

مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها، لكان أعظم لأجرك، فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها، ووضعه على باب بيتها و لم يكلِّمها، فلبث على هذه الحالة زمانًا، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر وحضَّه عليه، فقال: لو كنت تُكلِّمها وتُحدِّثها؛ فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حدَّثها زمانًا، يطلع إليها من فوق صومعته، ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها، وتقعد على باب بيتها فتحدثك، كان أحسن لها وآنس لها، فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا على ذلك زمانًا ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والثواب فيما يصنع معها، وقال له: لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبًا من باب بيتها فحدثتها، كان آنس وأحسن لها، فلم يزل به حتى فعل، قال: فلبث زمانًا، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير قائلاً: لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها و لم تخرج من بيتها، ففعل فكان ينزل من صومعته، فيقف على باب بيتها فيحدثها، فلبثا على ذلك حينًا، ثم جاءه إبليس فقال له: لو دخلت معها فحدثتها و لم تتركها تبرز وجهها لأحد، كان أحسن بك، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهاره كله، فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته، ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزيِّنها له، حتى ضرب العابد على فخذها وقبَّلها، فلم يزل إبليس يحسنها في عينيه ويُسوِّل له حتى وقع عليها فأحبلها، فولدت له غلامًا، فجاء إبليس، فقال: أرأيت إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟ لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك، فاذهب إلى ابنها فاذبحه وادفنه، فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يَطَّلعوا على ما صنعت بها، ففعل وقتل ابنها، فقال له إبليس: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها، خذها واذبحها وادفنها مع ابنها، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها، وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوَّى عليهما وصعد إلى صومعته يتعبَّد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله به أن يمكث، حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاؤوا فسألوه عن أختهم، فنعاها لهم وترحَّم عليها وبكاها، وقال: كانت خير امرأة، وهذا قبرها فانظروا إليه، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحَّموا عليها وأقاموا على قبرها أيامًا، ثم انصرفوا إلى أهاليهم، فلما جن الليل وأخذوا مضاجعهم، جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان، وقال: لم يصدُقْكم أمر أختكم، إنه قد أحبل أختكم، وولدت منه غلامًا، فذبحها وذبح الغلام خوفًا منكم، وألقاهما في حفرة حفرَهَا خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فانطلِقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه، فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعًا، وأتى الأوسط في منامه، فقال له مثل ذلك، ثم أتى أصغرهم، فقال له مثل ذلك، فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجِّبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول لأخيه: لقد رأيت الليلة عجبًا، فأخبر بعضهم بعضًا بما رأى، فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم،

فقال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه، قال: فانطلقوا جميعًا حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفرة كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد، فصدق قول إبليس فيما صنع بهما، فرفعوا أمره إلى مَلِكَهم، فأنزلوه من صومعته وقدم ليُصلب، فلما أوثقوه على الخشبة ليُقْتَل، أتاه الشيطان فقال له: أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة التي أحبلتها وذبحتها وابنها، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرتَ بالله الذي خلقك وصورك، خلَّصْتُك مما أنت فيه، فكفر العابد بالله؛ فلما كفر بالله - تعالى - خلَّى الشيطان بينه وبين أصحابه، فصلبوه، ثم قُتِلَ، ففيه نزلت هذه الآية: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر: 16- 17].

قصة أخرى تدل على شؤم عدم الاستقامة على طاعة الله:

"وهذه قصة شاب كان ملتزمًا بشرع الله، حريصًا على دينه، محافظًا على يقينه، ثم تهاون في تنفيذ أوامر الله - عز وجل - وتجرأ على محرَّمات الله، وعدل عن الاستقامة، فكان ذلك سببًا لسوء خاتمته، نسأل الله العافية، يقول الراوي:

كنا على ظهر سفينة نجول بها حول البلدان طلبًا للرزق، ومعنا شابٌّ صالح نقي السريرة طيب الخلق، كنا نرى التقى يلوح في قسمات وجهه، والنور والبشر يرتسمان على محياه، لا تراه إلا متوضئًا مصليًا أو ناصحًا مرشدًا، إن حانت الصلاة أذَّن لنا وصلَّى بنا، فإن تخلَّف أحدٌ عنها أو تأخَّر عاتبه وأرشده، وكان معنا على هذه السجية طيلة أسفارنا، وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند فنزلنا إليها، وكان مما تعوَّد عليه البحارة أن يستقروا أيامًا يرتاحون فيها، ويستجمون بعد عناء السفر الطويل، يتجوَّلون في أسواق المدينة؛ ليشتروا أغرب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم، ثم يرجعوا إلى السفينة في الليل، وكان منهم نفر ممَّن وقع في الضلال يَتيمَّم مساكن اللهو والهوى ومحال الفجور والبغاء، وكان ذلك الشاب الصالح لا ينزل من السفينة أبدًا، بل يقضي هذه الأيام يصلح في السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح، فيفتل الحبال ويلفها، ويُقوِّم الأخشاب ويشدها، ويشتغل بالذكر والقراءة والصلاة وقته ذاك.

وقال الراوي وعينه تترقرق بالدموع وتنحدر على لحيته: وفي إحدى السفريات، وبينما كان الشاب منشغلاً بأعماله تلك، إذا بصاحب له في السفينة ممَّن أتبع نفسه هواها، وانشغل بطالح الأمور عن صالحها، وبسافل الأخلاق عن عاليها، يهامسه، ويقول: صاحبي، لِمَ أنت جالس في السفينة لا تفارقها؟ لم لا تنزل حتى ترى دنيا غير دنياك؟ ترى ما يشرح الخاطر، ويؤنس النفس، أنا لم أقل لك: تعالَ إلى أماكن البغاء وسخط الله، ولا إلى البارات وغضب الله، هيهات... يا صاحبي، لكن تعالَ فانظر إلى مُلاعِب الثعابين



كيف يتلاعب بها ولا يخافها، وإلى راكب الفيل، كيف يجعل من خرطومه له سلمًا، ثم يصعد برجليه ويديه؛ حتى يقيمه على رجل واحدة، وآه لو رأيت مَن يمشي على المسامير أنَّى له الصبر، ومَن يلقم الجمر كأنه تمر، ومَن يشرب ماء البحر فيسيغه كما يسيغ الماء الفرات، يا أخي، انزل وانظر الناس، فتحرَّكت نفس الشاب شوقًا لما سمع، فقال: وهل في هذه الدنيا ما تقول؟ قال صاحب السوء: نعم، وفي هذه الجزيرة، فانزل ترَ ما يسرك، ونزل الشاب الصالح مع صاحبه، وتجولا في أسواق المدينة وشوارعها، حتى دخل به إلى طرق صغيرة ضيقة، فانتهت بهما الطريق إلى بيت صغير، فدخل الرجل البيت وطلب من الشاب أن ينتظره، وقال: سآتيك بعد قليل، ولكن إياك.. إياك أن تقترب من الدار، جلس الشاب بعيدًا عن الباب يقطع الوقت قراءةً وذكرًا، وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية ليُفتَح الباب وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء والمروءة.

أواه! إنه الباب الذي دخل فيه الرجل، وتحرَّكت نفس الشاب فدنا من الباب، وإذا به يسمع صيحة أخرى، فنظر من شق الباب، ويتبع النظرة أختها لتتواصل النظرات منه وتتوالى، وهو يرى شيئًا لم يألفه، ولم يره من قبل ثم رجع إلى مكانه، ولما خرج صاحبه بادره الشاب مستنكرًا.. ما هذا؟! ويحك هذا أمرٌ يغضب الله ولا يرضيه، فقال الرجل: اسكت يا أعمى، يا مغفل، هذا أمر لا يعنيك، قال الراوي: ورجعا إلى السفينة في ساعة متأخرة من الليل، وبقي الشاب ساهرًا ليلته تلك، مشتغل الفكر فيما رآه قد استحكم سهم الشيطان من قلبه، وامتلكت النظرة فؤاده.

فما أن بزغ الفجر وأصبح الصباح، حتى كان أول نازل من السفينة، وما في باله إلا أن ينظر فقط، ولا شيء غير أن ينظر، وذهب إلى ذلك المكان، فما أن نظر نظرته الأولى وأتبعها الثانية، حتى فتح الباب وقضى اليوم كله هناك، واليوم الذي بعده كذلك، فافتقده ربان السفينة وسأل عنه، أين المؤذن؟ أين إمامنا في الصلاة؟ أين ذلك الشاب الصالح؟ فلم يجبه من البحارة أحد! فأمرهم أن يتفرقوا للبحث عنه، فوصل إلى علم الربان مَن ذهب به إلى ذلك المكان، فأحضره وزجره، وقال له: ألا تتقي الله؟! ألا تخشى عقابه، عجِّل واذهب فأحضره، فذهب إليه مرة بعد مرة، فلم يستطع إحضاره؛ لأنه كان يرقص ويأبى الرجوع معهم، فلم يكن من قائد السفينة إلا أن أمر عدة من الرجال أن يحضروه قسرًا، فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة.

قال الراوي: وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد، ومضى البحارة إلى أعمالهم، وأخذ ذلك الشاب في زاوية من السفينة يبكي ويئن، حتى لتكاد نياط قلبه تتقطع من شدة البكاء، ويقدمون له الطعام فلا يأكل، وبقي على حاله البائس هذه بضعة أيام.

وفي ليلة من الليالي ازداد بكاؤه ونحيبه، ولم يستطيع أحد من أهل السفينة أن ينام، فجاءه ربان السفينة وقال له: يا هذا اتقِ الله ماذا أصابك، لقد أقلقَنا أنينُك، فما نستطيع أن ننام، ويحك ما الذي بدل حالك؟

ويلك ما الذي دهاك؟ فرد عليه الشاب وهو يتحسر: دعني فإنك لا تدري ما الذي أصابني، فقال الربان: وما الذي أصابك؟ وعند ذلك كشف الشاب عن عورته، وإذا بالدود يتساقط من سوءته؛ فانزعج ربان السفينة وارتعش لما رأى، وقال: أعوذ بالله من هذا، وقام عنه الربان، وقبيل الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم، وذهبوا إلى مصدرها، فوجدوا ذلك الشاب قد مات، وهو ممسك خشب السفينة بأسنانه".

استرجع القوم وسألوا الله حسن الختام، وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لِمَن يعتبر؛ (رسالة عاجلة إلى المسلمين: ص 40 - 46).

6- التسويف بالتوبة:

والتوبة إلى الله - عز وجل - من جميع الذنوب واجبة على كل مكلف كل لحظة، قال - تعالى -: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31].

وكان - صلى الله عليه وسلم - وهو المغفور له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، يتوب إلى الله - تعالى - كل يوم مائة مرة؛ فقد أخرج الإمام مسلم في "صحيحه" عن الأغر بن يسار المزني قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((يا أيها الناس، توبوا إلى الله؛ فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة)).

فاعلموا أيها الأحبة أن من أهم أسباب سوء الخاتمة تسويف التوبة، فلا يزال العبد غارقًا في الشهوات والشبهات، وهو يؤجل التوبة يومًا بعد يوم، حتى يأتيه ملك الموت فجأة، فيصرخ هذا العبد ويندم على عمره الذي مضى في معصية الله، ويقول: {رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} [المؤمنون: 99، 100].

فإن من أنجح حيل إبليس التي يحتال بها على الناس التسويف في التوبة، فيوسوسُ للعاصي بأن يتمهَّل في التوبة، فإن أمامه زمنًا طويلاً، ولو تاب الآن ثم رجع، لا يمكن أن تقبل توبته بعد ذلك فيكون من أصحاب النار، أو يوسوس له بأنه إذا بلغ الخمسين أو الستين مثلاً، فعليه أن يتوب توبة نصوحًا ويلزم المسجد ويكثر القربات، أما الآن، فإنه في شبابه وزهرة عمره، فليمتع نفسه ولا يشق عليها بالتزام الطاعات من الآن، فهذا بعض مكائد إبليس في التسويف بالتوبة.

وكان بعض السلف يقول: "أُنذركم سوف"، فإنها أكبر جنود إبليس، ومثل المؤمن الحازم الذي يتوب إلى الله من كل ذنب وفي كل وقت، خوفًا من سوء الخاتمة ومحبة لله، والمفرط المسوِّف الذي يؤخِّر توبته؛ كمَثَل قوم في سفر دخلوا قرية، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره، وجلس متأهبًا للرحيل، أما المُفرِّط فإنه يقول كل يوم: سأتأهب غدًا حتى أعلن أمير القافلة الرحيل ولا زاد معه، وهذا مثل للناس في

الدنيا، فإن المؤمن الحازم متى جاء الموت لم يندم، أما العاصي المفرط فيصرخ عند موته، ويقول: {رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} [المؤمنون: 99، 100].

- وهناك مثال آخر لِمَن يؤجل التوبة والإقلاع عن الذنب، فهذا مثله كمثل مَن أراد أن يقلع شجرة من فناء دار، فوجدها راسخة الجذور في الأرض ثابتة، فقال: أعود إليها في العام المقبل فأقتلعها، وما علم هذا المسكين أن الشجرة في العام المقبل سوف تزداد رسوخًا في الأرض، وسوف يزداد هو ضعفًا.

كذلك شجرة الشهوات كلما استمر العبد في المعاصي وأكثر فيها، تزداد رسوخًا في أرض قلبه، ويزداد هو بالمداومة على المعاصي ضعفًا، فلا يزال العبد يزداد محبة للشهوات، وضعفًا عن الإقلاع عنها، حتى تنزل عليه الرسل، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت.

يقول ابن رجب - رحمه الله - في "لطائف المعارف" (ص 153):

"اعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة، فإنه لا يقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذَّاتها وشهواتها من المعاصي.. وغيرها، ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة، أفاق من سكرته لشهوات الدنيا، فندم حينئذٍ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحًا، فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت.

وقد حذَّر الله في كتابه عبادَه من ذلك؛ ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح، قال - تعالى - : {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الزمر: 54 - 58]، وقال - تعالى -: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 10، 11].

- سُمِعَ بعضُ المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه، ويقول: يا حسرتى على ما فرطتُ في جنب الله.

وقال آخر عند احتضاره: "سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي".

وقال آخر عند موته: "لا تغرنَّكم الحياة الدنيا كما غرَّتني".

فهؤلاء لما نزل بهم الموتُ أغلق دونهم باب التوبة، والأمر كما قال - تعالى -: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} [سبأ: 54]، قال عمر بن عبدالعزيز في تفسيرها: "إنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها".



قال ابن كثير في "تفسيره" عند قوله - تعالى -: {أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 254].

"كل مفرط يقدم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا؛ ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كان ما كان، وأتى ما هو آتٍ، وكل بحسب تفريطه".

يقول يحيى بن معاذ - رحمه الله -: "لا تكن ممَّن يفضحه يومَ موته ميراثُه، ويومَ حشره ميزانُه"؛ (الزهد الكبير ص 255).

فغاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يفرطون في حياتهم فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، بل منهم من يقطعها بالمعاصي، فها أنتم أيها الأحبة.. أصبحتم في أمنية كثير من الناس.

فالبدار البدار قبل الفوات، والحذار الحذار من يوم الغفلات، قبل أن يقول المذنب: "رَبِّ ارجعون"، فيقال: "فات"؛ (انظر التبصرة لابن الجوزي).

وختامًا أيها الأحبة، فهذه جملةٌ من أسباب سوء الخاتمة، وإني لأحذِّر نفسي وإياكم من أن نقع في واحدة منها.

وإياك والتسويف فالعمر قصير، والباقي منه هو يسير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك؛ لأنه يمكن أن تُخْطف فيه روحك، ولنعلم جميعًا أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه، فمَن استقام في هذه الحياة الدنيا، خُتِم له بخاتمة السعادة، ومَن زلَّت قدمه وحارب ربه، فسيكون ما سمعنا.

قال أبو محمد عبدالحق الإشبيلي: في كتابه "العاقبة":

"اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لِمَن استقام ظاهره وصلح باطنه، وما سُمِع بهذا ولا عُلِم به - والحمد لله - وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان[1] عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، أو يكون ممَّن كان مستقيمًا، ثم يتغيَّر عن حاله، ويخرج عن سننه، ويخرج عن طريق الهداية ويسلك طريق الغواية، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته، وشؤم عاقبته".

وقال ابن رجب: "مَن استقام ظاهره مع باطنه، خُتِم له بالإيمان".

أحبتي في الله، هذه المحاضرة ليست دعوة لليأس والقنوط من رحمة الله - تعالى - وإنما هي دعوة للتوبة والرجوع إلى الله - عز وجل - ثم الاستقامة على ذلك إلى أن تلقى الله - عز وجل - وهذه معنى قوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

1 يصطلمه الشيطان؛ أي: يستأصله عن دينه ويقطعه عنه.



وقال ابن كثير - رحمه الله - في "تفسيره": "لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه، أنَّ مَن عاش على شيء مات عليه، وأنَّ مَن مات على شيء بُعِث عليه".

فاللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى، أن تختم لنا بما يرضيك عنا، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، اللهم اختم لنا بخاتمة السعادة، وارزقنا الجنة والزيادة، اللهم احشرنا في زمرة الصالحين، وارزقنا صحبة سيد المرسلين، اللهم ارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم في جنة النعيم، آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين.

وبعد:

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة، نسأل الله أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منَّا بقبول حسن، كما أسأله - سبحانه وتعالى - أن ينفع بها مؤلِّفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي.

إن تَجِدْ عيبًا فسُدَّ الخللا = جلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا، ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، هذا والله - تعالى - أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

